مُقَدِّمَة

(١)

يتناول هذا البحث دراسة فرقة المعتزلة التي ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) بمدينة البصرة، من حيث إسهامها السياسي في أحداث التاريخ الإسلامي، ومن حيث أفكارها السياسية، وأصول هذه الأفكار.

وقد دُرِست المعتزلة -كفرقة كلامية لها ملامحها المتميزة- دراسات عدة، حتىٰ أصبح اسم هذه الفرقة في كثير من الأذهان لا يرتبط إلا بالفلسفة الإسلامية، في حين أن هذه الفرقة -كفرقة نشأت في ظروف سياسية كان يمر بها المجتمع الإسلامي- لا يمكن أن تنعزل عما يحيط بها من ظروف وما يموج به المجتمع الإسلامي حولها من أحداث، وإنَّ نظرة عامة إلىٰ الفرق التي نشأت في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الإسلام لتؤكد أن نشأتها لم تكن دينية بقدر ما كانت سياسية تمخَّضَتْ عنها الأحداث الخطرة التي اضطرمت بها تلك الحقبة، فالخوارج والشيعة والمرجئة كانت كلها فرقًا سياسية، ولم تكن المعتزلة بدعًا بين هذه الفرق. علىٰ أنه ينبغي ألا تفوتنا ملاحظة مهمة، وهي أن الدين والسياسة في ذلك العصر البعيد كانا متآزرين، فقد كانت إذن هذه الفرق في تحركاتها السياسية تتسلح بالدين وتتأيد به فيما تذهب إليه من السياسة؛ ومن هنا فإن هذا البحث -علىٰ الرغم من أنه يتناول المعتزلة تناولًا سياسيًّا في الأساس- قد يَعْرِض أحيانًا لبعض آرائهم الفلسفية أو الدينية، إذا اتضح أن هناك صلة ما بين هذه الآراء وبين موقف سياسي، عملي أو نظري، لهم.

ولعله من المناسب -قبل الدخول في التعريف المباشر بهذا المبحث- أن نستعرض بإيجاز أهم الجهود التي سبقته وأسهمت في ريادة الطريق إسهامًا مباشرًا أو غير مباشر.

ومن الممكن -مبدئيًّا- تقسيم الأبحاث التي تناولت المعتزلة إلىٰ قسمين عريضين:

١- قسم يتناول المعتزلة تناولًا عامًّا؛ أي يحاول أن يدرس هذه الفرقة دراسة شاملة، دون التركيز علىٰ جانب معين من الجوانب التي اشتهرت بها هذه الفرقة.

٢- والقسم الثاني يتناول المعتزلة تناولًا متخصِّصًا؛ أي يأخذ أحد جوانبها ويُخضِعه للدراسة المركزة، وقد يمسّ بعضَ الجوانب الأخرىٰ التي تتصل بموضوعه، ولكن دون أن يكون ذلك هدفًا لذاته.

وأبرز أمثلة القسم الأول كتاب: **تاريخ الجهمية والمعتزلة** لجمال الدين القاسمي، و**المعتزلة** لزهدي جار الله.

أما الكتاب الأول فقد خصص مؤلفه القسم الثاني منه لدراسة المعتزلة بصورة عامة وسريعة؛ حيث تناول نشأتهم وبعض أفكارهم واستعرض أطرافًا من تاريخهم، خصوصًا زمن اتساع نفوذهم. وتُعد دراسة المرحوم جمال الدين القاسمي من الدراسات الرائدة في هذا المجال؛ لأنها كتبت في مطالع هذا القرن. وذلك علىٰ الرغم من أنها دراسة سريعة، ولا تثير إلا بعض القضايا العامة، وتُغْفِل كثيرًا من تاريخ هذه الفرقة بمستوياته المختلفة.

وأما الكتاب الثاني -وهو **المعتزلة** للأستاذ زهدي جار الله- فهو في الحقيقة دراسة جادة وشبه شاملة لتاريخ المعتزلة عمومًا حتىٰ منتصف القرن الخامس الهجري. وقد بذل مؤلفه جهدًا مشكورًا في جمع أطراف الموضوع ليكوِّن بناءً متكاملًا لفرقة المعتزلة. لكن الملاحظة الأساسية علىٰ هذا الكتاب أن مؤلِّفه عالج فيه موضوعات يضيق عنها مؤلَّف واحد، ولا تتسع لها إلا مؤلفات عدة، فمن غير اليسير أن يعرض الباحث لنشأة المعتزلة وأصولهم الفكرية وفرقهم المختلفة التي بلغت زهاء العشرين، ولتراجم بعض أعلامهم، ثم لبعض جوانب تاريخهم السياسي والفلسفي والأدبي، ثم يتتبع هذا التاريخ إلىٰ ما بعد القرن الرابع

الهجري . . . إن هذه الموضوعات لا يفي بها بحث واحد، ولن يجد الباحث بُدًّا في هذا الحالة من أن ينحو مَنْحىٰ الدراسة التسجيلية في أحيان كثيرة، دون تتبع المشاكل وتقصِّي جوانبها المختلفة. وعذر الباحث هنا هو ترامي أطراف موضوعه. علىٰ أن هذا النوع من الأبحاث يؤدي خدمة طيبة للباحثين في أنه يتيح لهم تكوين فكرة عامة وصحيحة عن الموضوع المعالَج، مما يسهِّل أمامهم طريق البحث المتخصِّص في أحد جوانبه.

أما القسم الثاني الذي يتناول المعتزلة تناولًا متخصِّصًا فهو يدور في ثلاثة اتجاهات: اتجاه فلسفي، واتجاه أدبي، واتجاه سياسي.

أما **الاتجاه الفلسفي** -أو الكلامي- فقد استأثر بمعظم الأبحاث التي تصدَّتْ لدراسة المعتزلة، وليس من الضروري هنا استعراض هذه الأبحاث، لكن تجدر الإشارة إلىٰ البحث الذي كتبه المرحوم الدكتور علي سامي النشار عن المعتزلة في الجزء الأول من كتابه «**نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**»، فقد تعرَّضَ خلاله لبعض جوانب الفكر السياسي عندهم وما ارتبط بها أحيانًا من مواقف عملية، وقد أفدنا من ملاحظات الدكتور النشار في غير موضع من هذا البحث.

وأما **الاتجاه الأدبي** عند المعتزلة فقد أفرد له أستاذنا المرحوم الدكتور **عبد الحكيم بلبع** بحثًا بعنوان «**أدب المعتزلة** إلىٰ نهاية القرن الرابع الهجري». وقد قدم له بمقدمة مسهبة عن المعتزلة ودورهم في خدمة الفكر الإسلامي، كما عكست الدراسة الأدبية الصميمة جوانب متعددة من إسهام المعتزلة فكريًّا وسياسيًّا علىٰ مسرح الحياة الإسلامية.

يبقىٰ **الاتجاه السياسي** بين الاتجاهات التي تدور حولها الأبحاث المتخصصة. والحق أن هذا الاتجاه لم يظفر حتىٰ الآن بما يستحقه من اهتمام، وإن كانت قد قدمت بعض الجهود التي حاولت أن ترتاد هذا الميدان من ميادين النشاط الاعتزالي، ولعل أسبق هذه الجهود وأجدرها بالإشارة ذلك البحث القيم الذي كتبه المرحوم أحمد أمين في الجزء الثالث من كتابه «**ضحىٰ الإسلام**» عن المعتزلة، فقد حظي الجانب السياسي فيه باهتمام طيب، حيث تناول بعض آراء المعتزلة في الشؤون السياسية، وعرض لقضية خلق القرآن من الوجهة السياسية

مشيرًا بذلك إلىٰ فترة الاستبداد السياسي في تاريخ المعتزلة . . . والحق أن بحث الأستاذ أحمد أمين يُعَدُّ رائدًا في هذا الموضوع، فقد لفت الأنظار إلىٰ أهمية هذا الجانب في تاريخ المعتزلة. أما الملاحظات الأساسية علىٰ هذا البحث فيمكن إجمالها فيما يلي:

١- أنه ركَّز علىٰ بعض الجوانب في تاريخ المعتزلة السياسي دون بعضها الآخر، فقد استأثرت بالنصيب الأكبر من اهتمامه تلك الفترة التي تمثل استبداد المعتزلة (في خلافة المأمون والمعتصم والواثق). ولهذا حظيت محنة خلق القرآن بذلك الاهتمام الواضح في بحثه، وهذا حسن، ولكن كانت هناك جوانب أخرىٰ أكثر غموضًا في تاريخ المعتزلة، وكانت في حاجة إلىٰ مزيد من البحث وتسليط الأضواء.

٢- أنه اعتمد في معظم بحثه علىٰ ما كتبه خصوم المعتزلة لا المعتزلة أنفسهم، وهو معذور في هذا؛ لأن الوقت الذي كتب فيه بحثه لم يشهد إلا أقل القليل من مؤلَّفات المعتزلة، فلم يكن أمام الباحث إلا أن يستقي معظم مادته عن المعتزلة من كتابات الخصوم، ومهمة الباحث هنا أشق؛ لأنه يحاول أن يتبين زيف القول من صدقه، ويقطع طريقًا مضنيًا في تمحيص الروايات ومعرفة ما وراءها من حق أو باطل إذا أراد أن تكون أحكامه أقرب إلىٰ الدقة.

٣- أن الفكر السياسي للمعتزلة لم يحظَ بالاهتمام المناسب في هذا البحث، فقد أشار إلىٰ بعض جوانب منه إشاراتٍ متفرقة، مع أن التاريخ العملي للمعتزلة هو انعكاس لفكرهم السياسي، ومن هنا كان ضروريًّا أنْ يظفر هذا الفكر بالاهتمام المناسب في مثل هذا البحث.

ومع كل هذا، فإنه يلزم أن نكرر ما سبقت الإشارة إليه من أن هذا البحث رائد في ميدانه، ولعله من أوائل البحوث التي وجهت النظر إلىٰ دراسة هذا الجانب المهم في تاريخ المعتزلة.

وفي هذا الميدان نفسه -ميدان التاريخ السياسي للمعتزلة- ظهرت دراسة متأخرة نسبيًّا تنبغي الإشارة إليها لأهميتها، فقد كتب المستشرق الإنجليزي «مونتجومري وات» مقالًا يقع في حوالي خمس عشرة صفحة بعنوان «**المواقف**

السياسية للمعتزلة»: The Political Attitudes of the Mu'tazila وقد نُشِرَ في عام ١٩٦٣ في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية. وقد أثار (وات) في هذا البحث كثيرًا من القضايا السياسية المهمة كالصلة بين الاعتزال والتجهم، وبين المعتزلة والزيدية، كما عرض لبعض آراء المعتزلة في أحداث التاريخ وبعض مواقفهم العملية وحاول أن يقدم خلال ذلك بعض التفسيرات الجديدة، والملاحظ علىٰ بحث الأستاذ «وات» أنه اهتم بإثارة القضايا أكثر من اهتمامه بمحاولة دراستها وإماطة اللثام عنها؛ وذلك راجع -بطبيعة الحال- إلىٰ ما يقتضيه الحيِّز المحدود للمقال من عجلة وإيجاز.

(٢)

بعد هذه الفكرة المختصرة التي تناولت موضوع البحث وجانبًا من الدراسات التي قدمت حوله نأتي الآن إلىٰ نقطة أخرىٰ هي محتويات البحث وطريقة التناول:

يتألف هذا البحث من تمهيد وأربعة أبواب:

ويتناول التمهيد -باختصار- دراسة فرقتين من أهم الفرق التي سبقت المعتزلة ومهَّدَتْ لها، وهما: «**الغيلانية**»، و«**الجهمية**»، وقد نوقشت في هذا التمهيد أهم الروابط التي ربطت هاتين الفرقتين بالمعتزلة، وهل كانت هذه الروابط من القوة بحيث يمكن القول إن المعتزلة كانت امتدادًا لهما أو لإحداهما؟ كما تضمن التمهيد أيضًا إشارة سريعة لبعض الفرق الأخرىٰ التي سبقت المعتزلة وتشابهت معها في بعض المواقف أو الأفكار، ولكن بدرجة أقل من الفرقتين السابقتين.

وفي الباب الأول نوقش موضوعان أساسيان؛ أولهما: **نشأة المعتزلة**، والثاني: **فكرهم السياسي**.

وقد انقسم هذا الباب إلىٰ أربعة فصول:

يتناول **الفصل الأول**: نشأة المعتزلة وما تنطوي عليه هذه النشأة من ملابسات سياسية، محاولًا أن يتتبع الجذور السياسية الأولىٰ لهذه النشأة، وذلك منذ مقتل عثمان، ذلك الحادث الذي هزَّ المجتمع الإسلامي بعنف، وبدأ بعده عهد الاضطرابات الداخلية وحروب الصحابة في «الجمل»، ثم «صفين» وظهور الشيعة والخوارج ومقتل علي ... إلخ، وكانت تلك الأحداث وراء إثارة ذلك السؤال المهم: ما حكم مرتكب الكبيرة من المسلمين؟ ومثَّلَتْ الاجتهادات التي طرحت للإجابة عن هذا السؤال أساس الاختلاف بين الفرق الإسلامية، ومنها المعتزلة

التي ذهب زعيمها واصل بن عطاء إلىٰ أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر. وعلىٰ هذا، فإن الملابسات التي أحاطت بتقرير أصل المنزلة بين المنزلتين كانت ملابسات سياسية، وهو الأصل الذي أسهم ظهوره في تحديد ملامح المعتزلة كفرقة مستقلة متميزة.

ويتناول الفصل الثاني (من الباب الأول): أصول المعتزلة الخمسة في محاولة لتبيُّن المعاني السياسية التي تنطوي عليها هذه الأصول، وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعلىٰ هذا، فإن مناقشة هذه الأصول لم تتم من الوجهة الكلامية بل من الوجهة السياسية، وقد تبيَّن أن كل هذه الأصول ذات صلة بالسياسة علىٰ تفاوت هذه الصلة، بل إن أقل الأصول صلة بالسياسة حسب الظاهر -وهو مبدأ التوحيد- كانت له مظاهره السياسية بعد ذلك في محنة خلق القرآن التي أثيرت في عهود المأمون والمعتصم والواثق.

ويتناول **الفصل الثالث**: نظرية الحكم أو الإمامة عند المعتزلة. وهو موضوع بالغ الأهمية في الفكر السياسي، وقد كانت للمعتزلة فيه آراء بعضها يغلب عليه طابعهم الخاص في التفكير، وبعضها يشتركون فيه مع بعض الفرق الإسلامية الأخرىٰ، ومن هنا فقد غلبت روح المقارنة علىٰ هذا الفصل وذلك بهدف تبيُّن ما أضافه المعتزلة من جديد إلىٰ هذا الموضوع الأساسي في الفكر السياسي الإسلامي.

أما **الفصل الرابع** والأخير من الباب الأول: فيعرض للاتجاه الشيعي في فكر المعتزلة السياسي، وقد تناول جذور هذا الاتجاه ومفهومه الذي يمكن أن ينطبق علىٰ المعتزلة، ومن ثمَّ فقد كان من الضروري تحديد معنيين للتشيع هما: **المعنىٰ الاصطلاحي** الذي ينطوي في داخله أيضًا علىٰ اتجاهات، ثم **المعنىٰ البسيط** غير الاصطلاحي، وكان من الضروري أيضًا بيان أي المعنيين يمكن أن ينطبق علىٰ المعتزلة. وقد عرض هذا الفصل أيضًا لتشيُّع المعتزلة من وجهة نظر المدرستين الشهيرتين: «مدرسة البصرة و«مدرسة بغداد»، مبينًا أهم ما بينهما من فروق في ذلك الاتجاه الشيعي. وبتمام هذا الفصل ينتهي الباب الأول.

أما **الباب الثاني**: **فيتناول نشاط المعتزلة السياسي في خلافة الأمويين والعباسيين الأوائل حتىٰ خلافة المأمون. ومن هنا فقد انقسم إلىٰ فصلين:**

الفصل الأول عن المعتزلة في خلافة الأمويين: وقد عرض هذا الفصل للموقف العدائي الذي يقفه بعض المعتزلة من الأمويين عمومًا، محاولًا تفسير هذا الموقف في ضوء فكرهم السياسي النظري، وقد تناول هذا الفصل أيضًا بشيء من التفصيل موقف المعتزلة من عمر بن عبد العزيز الذي تأرجحت حوله آراؤهم؛ فبعضهم يهاجمه بعنف، وبعضهم لا يدلي فيه برأي، وبعضهم يثني عليه ويعده استثناء من السابقين عليه، كما تناول أيضًا موقفهم من يزيد بن الوليد، وهو الخليفة الأموي الوحيد الذي أجمعت آراء المعتزلة علىٰ موالاته باعتباره واحدًا من أهل العدل والتوحيد بمفهومهم.

أما **الفصل الثاني**: فهو عن موقف المعتزلة من العباسيين الأوائل حتىٰ خلافة المأمون، وقد تعرض هذا الفصل بإيجاز لنشأة الدعوة العباسية وتطورها وموقف المعتزلة منها، ثم تناول موقف العباسيين الأوائل من المعتزلة: هل كان موقف تشجيع وعون، أو حرب واضطهاد، أو موقف حياد؟ وقد حاول هذا الفصل أن يجيب بصفة خاصة عن بعض الأسئلة التي تتعلق بالصلة بين المعتزلة وأبي جعفر المنصور، فعلىٰ الرغم من الصداقة الوطيدة التي ربطت بين شيخ المعتزلة عمرو ابن عبيد وبين المنصور نجد المعتزلة يثورون علىٰ المنصور بالاشتراك مع إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن، فما تفسير هذه الثورة وما دوافعها؟

ثم يأتي **الباب الثالث**: وهو يتناول تاريخ المعتزلة في ذروة نفوذهم السياسي (١٩٨- ٢٣٢هـ/ ٨١٣- ٨٤٧م). وقد انقسم أيضًا إلىٰ فصلين:

الفصل الأول: عن المعتزلة منذ خلافة المأمون حتىٰ محنة خلق القرآن. وقد تتبع هذا الفصل تاريخ المأمون المذهبي منذ خلافته حتىٰ وفاته، وناقش أهم الأسباب التي دفعت به إلىٰ اعتناق المذهب الاعتزالي، ثم مظاهر هذا المذهب في حياته عمليًّا ونظريًّا.

أما **الفصل الثاني** (من الباب الثالث) فموضوعه: المعتزلة في مرحلة التسلُّط. وقد كانت أهم القضايا التي نوقشت خلاله هي قضية خلق القرآن: مفهوم هذه

القضية، وهل أثارها المعتزلة بدوافع سياسية أو دينية، ثم أسلوب المعتزلة في علاجها وما ترتب عليه من ردود فعل حادة بين جمهور المسلمين، وأخيرًا: الأسباب التي دفعت الخليفة الواثق في أواخر حكمه إلىٰ إبطال إجراءات المحنة، ومناقشة هذه الأسباب.

يبقىٰ **الباب الرابع** والأخير، وموضوعه: المعتزلة منذ خلافة المتوكل حتىٰ ظهور الأشعري في أواخر القران الثالث الهجري. وهو فصلان:

تناول **الفصل الأول**: محنة المعتزلة علىٰ يد المتوكل: مظاهر هذه المحنة، وأسبابها، ونتائجها. كما أثار أيضًا بعض القضايا الجانبية التي ارتبطت بها، وأهمها اضطهاد المتوكل للعلويين وهدمه قبر الحسين، وذلك في محاولة للوقوف علىٰ الجذور المذهبية أو السياسية لهذا العمل.

أما **الفصل الثاني**: فقد تناول وضع المعتزلة بعد خلافة المتوكل حتىٰ نهاية القرن الثالث الهجري محاولًا أن يبرز بصفة خاصة طبيعة العلاقة التي ربطت بينهم وبين الخلافة في تلك الفترة. كما تناول هذا الفصل أيضًا تطور العلاقة بين المعتزلة وبين الشيعة الإمامية في تلك الفترة وتفسير هذا التطور، ثم قيام دولة الشيعة الزيدية باليمن في أواخر القرن الثالث الهجري، واحتضان هذه الدولة لفكر المعتزلة، وأخيرًا تناول هذا الفصل ظهور الإمام أبي الحسن الأشعري وتأثيره الضخم في الكيان الفكري للمعتزلة؛ ذلك أن الأشعري حارب المعتزلة حربًا مذهبية قاسية انضمت إلىٰ حرب السلطة لهم، فانهار بذلك نفوذ المعتزلة واستقلالهم، ولم تُتَحْ لهم بعد ذلك فرصة لوجودٍ مستقل يمارس تأثيره ونفوذه بدون وصاية خارجية.

هذا ما يتصل بمحتويات البحث وطريقة التناول.

(٣)

أهم المصادر:

لا تتسع هذه المقدمة لتقصِّي جميع مصادر البحث والتعليق عليها والموازنة بينها، فلعل الأنسب هنا اختيار نماذج معينة من هذه المصادر تمثل أهمية خاصة، ثم التعليق عليها.

ويمكن -بصفة أساسية- تقسيم هذه المصادر إلىٰ ما يأتي:

١- مصادر اعتزالية، وهي تشمل أيضًا المصادر الزيدية؛ نظرًا لاتفاق الفكرين تقريبًا.

٢- مصادر شيعية.

٣- مصادر سنية.

١- المصادر الاعتزالية:

ظلت المصادر الاعتزالية بعيدة عن متناول الدارسين زمنًا طويلًا؛ نظرًا لما كان يتعرض له الفكر الاعتزالي من ملاحقة واضطهاد، ولم يفلت من أيدي خصوم هذا الفكر إلا كتاب واحد للمعتزلة هو كتاب «**الانتصار والرد علىٰ ابن الراوندي الملحد**» للخياط «أبي الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان»، من رجال الطبقة الثامنة، ويضاف إليه كتاب «**المنية والأمل**» الذي ألفه أحد علماء الزيدية وهو ابن المرتضىٰ. وقد تناول فيه مُؤَلِّفُهُ طبقات المعتزلة بالتصنيف والترجمة، وكان هذا الكتاب إلىٰ وقت قريب هو المصدر الأساسي الذي يعتمد عليه الباحثون في طبقات المعتزلة وتراجمهم، حتىٰ ظهر في أوائل عام ١٩٧٤ كتاب يُعد المصدر

الأساسي لابن المرتضىٰ، وهو «**فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**» لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، المفكر المعتزلي المشهور (توفي سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م). وقد اكتشف هذه المخطوطة النادرة وقام بتحقيقها تحقيقًا علميًّا جيدًا المرحوم فؤاد سيد. وقد ضمَّ إلىٰ هذا الكتاب قطعة عثر عليها من كتاب «**مقالات الإسلاميين**» لأحد شيوخ المعتزلة البغداديين، وهو أبو القاسم البلخي. وهذه القطعة بعنوان «**ذكر المعتزلة**» وقد تناول فيها أبو القاسم نشأة المعتزلة وأصل الكلمة، وأورد تراجم كثيرة من رجال الفرقة. وقد انفرد هذا النص ببعض المعلومات المهمة التي لا توجد في غيره. كما ضم المحقق أيضًا إلىٰ هذا الكتاب ما يعد تكملة لطبقات المعتزلة، ويتمثل ذلك في طبقتين من طبقات المعتزلة لم يدركهما القاضي عبد الجبار، وذكرهما الحاكم أبو السعد -المفكر الزيدي- في كتابه «**شرح عيون المسائل**»، وهاتان الطبقتان هما: الحادية عشرة، والثانية عشرة.

أما النص الرئيس المهم في هذا الكتاب فهو نص القاضي عبد الجبار بعنوان: «**فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**» وهو العنوان الذي آثر المحقق أن تحمله المجموعة بنصوصها الثلاثة. والكتاب -كما يبدو من عنوانه- ينقسم إلىٰ قسمين أساسيين؛ القسم الأول: فضل الاعتزال، وتناول فيه القاضي بعض عقائد المعتزلة، ودافع عنها ورد علىٰ المخالفين لها، أما القسم الثاني فهو: طبقات المعتزلة، وقد عرضها القاضي عبد الجبار في عشر طبقات، وأضاف إليها الحاكم طبقتين، وتابعه علىٰ ذلك ابن المرتضىٰ في المنية والأمل.

وطبقات المعتزلة كما عرضها القاضي عبد الجبار هي المصدر الوحيد الذي وصل إلينا في موضوعه بقلم معتزلي صميم، وقد امتاز عرض القاضي بتقديم تفصيلات لم تتوفر فيما سجله ابن المرتضىٰ أو الحاكم الزيديَّان، فضلًا عن السبق الزمني الذي يجعل كتاب القاضي أوثق مما تلاه من مؤلفات. وهو لهذا كان المصدر الأساسي الذي اعتمد عليه البحث في تراجم رجال الاعتزال.

والكتاب الثاني للقاضي عبد الجبار -بين الكتب التي تمثل أهمية خاصة في هذا البحث- هو كتاب «**المغني في أبواب التوحيد والعدل**»، والمغني موسوعة

ضخمة تتألف من عشرين جزءًا وتتناول أسس العقيدة الاعتزالية تناولًا مسهبًا من وجهة نظر معتزلية خالصة، وقد اكتشفتْ كتاب المغني منذ سنوات بعثةٌ مصرية إلىٰ اليمن، وتوفر علىٰ تحقيقه طائفة من الأساتذة المتخصصين، والجزء الذي اعتمد عليه هذا البحث اعتمادًا مباشرًا من بين أجزاء كتاب المغني هو الجزء العشرون، وهو يتكون من مجلدين كبيرين خصصهما القاضي لبحث موضوع الإمامة من وجهة نظر المعتزلة، ويعد هذا البحث أوفىٰ بحث كتب في موضوعه عن تلك القضية في الفكر السياسي الإسلامي؛ ولهذا كان اعتمادنا عليه أساسيًّا في الفصل الذي عقدناه خاصًّا بـ «المعتزلة ونظرية الإمامة». والملاحظة التي نسجلها علىٰ طريقة القاضي في عرضه لهذا الموضوع هي الاستطرادات الكثيرة والتفريعات التي قد تشتت مسار الفكرة أحيانًا، ثم عدم استقامة عبارته في أحيان كثيرة، ولكن يبقىٰ أن هذا البحث الخاص بالإمامة في كتاب المغني هو أوفىٰ وأكمل بحث وصلنا حتىٰ الآن يعرض لهذا الموضوع من وجهة نظر المعتزلة وبقلم معتزلي أصيل.

ثم يأتي الكتاب الثالث للقاضي عبد الجبار، وقد مثَّل أيضًا أهمية خاصة في هذا البحث، وهو كتاب «**شرح الأصول الخمسة**»، والمقصود بالأصول الخمسة أصول المعتزلة المشهورة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد شرح القاضي عبد الجبار هذه الأصول شرحًا وافيًا وردَّ علىٰ دعاوىٰ المخالفين، وعلىٰ الرغم من أن الطابع الكلامي الخالص يغلب علىٰ تناول القاضي لهذه الأصول فقد استطاع هذا الكتاب أن يخدم موضوع البحث في مواضع عديدة، وأمكن أن يُستشف من وراء عرضه كثير من الصلات التي تربط هذه الأصول بالسياسة، كما أن المنهج الذي اتبعه القاضي في تأييده لآراء المعتزلة بعرض آراء الفرق الأخرىٰ والرد عليها أمكن الاستفادة منه كثيرًا في بعض المقارنات التي أجراها البحث بين آراء المعتزلة ومخالفيهم.

فهذه الكتب الثلاثة للقاضي عبد الجبار (**فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة** -المغني- شرح الأصول الخمسة) تعد مصادر أساسية بالغة الأهمية في هذا

البحث؛ وذلك لأنها أولًا: تمثل انعكاسًا صادقًا لفكر معتزلي صميم، وثانيًا: تتناول مسائل مهمة متنوعة من تراث المعتزلة تتكامل فيما بينها لتقدم صورة وافية عن هذا التراث، فالتراجم احتلت مكانها في «**طبقات المعتزلة**»، كما أن الأصول الفكرية التي قام عليها مذهب الاعتزال حظيت بنصيبها من الاهتمام في «**شرح الأصول الخمسة**» وفي «**المغني**»، بالإضافة إلىٰ أن «**المغني**» في جزئه العشرين قدَّم عرضًا وافيًا للفكر السياسي عند المعتزلة متمثلًا في نظرية الإمامة أو الحكم.

وقبل إنهاء الحديث عن المصادر الاعتزالية وأهميتها في هذا البحث، ينبغي التنويه بالدور الذي تقوم به مؤلفات الجاحظ في تقديم فكر المعتزلة وتاريخهم، وقد كانت «**رسائل الجاحظ**» علىٰ وجه الخصوص مصدرًا زوَّدَنا بمادة مهمة في مواضع مختلفة من هذا البحث، ومن أمثلة ذلك رسالته في بني أمية التي تَرجمت إلىٰ حدٍّ كبير عن موقف المعتزلة من الخلافة الأموية في أساسها، ومن أبرز الخلفاء الأمويين، ومثال آخر لذلك هو تلك الرسالة التي تناول فيها الجاحظ قضية خلق القرآن، مدافعًا عن وجهة نظر المعتزلة، ومندِّدًا بموقف المحدثين الذين كان يمثلهم حينذاك أحمد بن حنبل، وبما شاب هذا الموقف من تناقض فكري. علىٰ أن الملاحظة التي ينبغي تسجيلها علىٰ «**رسائل الجاحظ**» أنها تجانب الدقة التاريخية أحيانًا، ويشوب أسلوبها في مواضع مختلفة بعض المبالغة أو التعصب المذهبي، ومن هنا فإن أحكامها يجب أن توضع موضع الاختبار والتمحيص.

فهذه فكرة أساسية مختصرة عن أهمية المصادر الاعتزالية وإسهامها في مادة هذا البحث.

٢- المصادر الشيعية الإمامية:

علىٰ الرغم من أن فكر الشيعة الإمامية مبثوث في أثناء المصادر الأخرىٰ سنية أو اعتزالية، فإن الأوثق أن يؤخذ هذا الفكر عن مصادره الأصلية، تجنُّبًا لِمَظِنَّة التحريف أو المبالغة، والمصدران اللذان اعتمد عليهما البحث في هذه الناحية هما: «**فرق الشيعة**» لابن النوبختي، و«**منهاج الكرامة في معرفة الإمامة**» لابن المطهر الحِلِّي، أما «**فرق الشيعة**» فأهميته مقصورة علىٰ أنه يقدم فكرة

مختصرة عن هذه الفرق، لكنه لا يخوض كثيرًا في الأسس الفكرية العامة التي يقوم عليها الفكر الإمامي، ومن هنا فإن الطابع التسجيلي يغلب علىٰ هذا الكتاب دون الطابع التحليلي، أما «**منهاج الكرامة**» لابن المطهر فهو يملأ الفراغ الذي تركه كتاب «**فرق الشيعة**» من هذه الناحية. وقد مثَّل هذا الكتاب أهمية خاصة لهذا البحث للأسباب التالية:

أ- أنه يتناول أركان المذهب الشيعي الإمامي بصفة عامة، ونظرية الإمامة بصفة خاصة، وقد حاول المؤلف خلال عرضه أن يبرهن علىٰ وجهة نظره، وأن يتناول الأفكار المخالفة بالرد وبيان ما تنطوي عليه في رأيه من أوجه القصور، ومن ثَمَّ فإنه يصلح أساسًا للمقارنة بين فكر الشيعة الإمامية وبين غيره، وعلىٰ الأخص في نظرية الإمامة.

ب- أنه كتب في مرحلة متأخرة من تطور الفكر الشيعي؛ ولهذا فقد عكس كثيرًا من مظاهر التأثير الاعتزالي في الفكر الشيعي، تلك المظاهر التي بدأت في أواخر القرن الثالث الهجري واستمرت بعد ذلك في القرون التالية، ومن ثَمَّ فإن هذا الكتاب يمثل أهمية خاصة في بيان المدىٰ الذي وصل إليه الاقتباس الشيعي من الفكر الاعتزالي.

ج- ثم إن هناك سببًا خارجيًّا يمثل بعض نواحي الأهمية لهذا الكتاب، هو أن ابن تيمية خصَّصَ كتابه «**منهاج السنة النبوية**» للرد التفصيلي علىٰ أقوال ابن المطهر الحلي والإمامية، وقد بَيَّن ابن تيمية في مواطن كثيرة من كتابه ما ورد في نص ابن المطهر مما ليس داخلًا بالأصالة في الفكر الشيعي الإمامي، بل هو مأخوذ من فكر المعتزلة وأصولهم، ومن هنا فإن قراءة نص ابن تيمية مع نص ابن المطهر تعين علىٰ إجراء مقارنة بين ثلاث نوعيات من الفكر هي: الفكر الشيعي الإمامي، والفكر المعتزلي، ثم الفكر السني المحافظ.

٣- المصادر السنية:

تتعدد هذه المصادر وتختلف أنواعها بين مصادر خاصة بالفرق ومقالاتها المختلفة، ومصادر خاصة بالتراجم، ومصادر تاريخية عامة:

أما مصادر الفرق فيقف علىٰ رأسها في الأهمية بالنسبة إلىٰ هذا البحث كتاب

«**مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**» لأبي الحسن الأشعري: فهذا الكتاب يتصف أولًا باهتمامه بإيراد كثير من التفصيلات التي تفيد الباحث كثيرًا، ويتصف ثانيًا بالموضوعية في عرضه لأقوال الفرق المخالفة، وهذا واضح من طريقة عرضه لآراء المعتزلة، ثم إن هذا الكتاب من ناحية ثالثة يعد من أقدم المصادر التي تناولت أقوال الفرق الإسلامية، علىٰ أن الملاحظة الأساسية علىٰ هذا الكتاب أنه يقدم المادة العلمية في أغلب الأحيان دون محاولة لتحليلها أو التعليق عليها أو المقارنة بين أجزائها، وقد سَدَّ بعض الفراغ في هذا الجانب كتاب «**الملل والنحل**» للشهرستاني، فقد أخذ من الأشعري موضوعيته وأمانته، وأضاف إلىٰ ذلك منهج التحليل والاستنباط في كثير من الأحيان.

وأما مصادر التراجم فهي عديدة، ولعل أبرزها علىٰ المستوىٰ العام كتاب «**وفيات الأعيان**» لابن خَلِّكان، الذي امتاز بغنىٰ مادته العلمية، ثم امتاز أيضًا بكثير من الإنصاف حين كان يتناول تراجم بعض الأعلام من غير أهل السنة، ومن هنا فقد جاءت تراجمه لبعض رجال المعتزلة، كعمرو بن عبيد وأحمد بن أبي دوَاد، أمينة منصفة إلىٰ حد كبير.

ثم إن هناك مصادر متخصصة في التراجم، أي إنها أدارت حديثها بصورة أساسية حول شخصية واحدة، ومن أكثر هذه المصادر قيمة لهذا البحث كتاب «**مناقب الإمام أحمد بن حنبل**» لابن الجوزي، ثم كتاب «**تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري**» لابن عساكر، وقد تناول هذان الكتابان بالضرورة جزءًا مهمًّا من تاريخ المعتزلة وسلَّطا عليه كثيرًا من الأضواء.

بقيت بعد ذلك المصادر التاريخية العامة، وهذه المصادر تقدم الإطار العام للصورة التاريخية أو الأرضية التي يتحرك عليها الموضوع، كما تورد بعض التفصيلات المباشرة في بعض الأحيان، ومن الطبيعي أن يكون بين أهم هذه المصادر «**تاريخ الأمم والملوك**» للطبري، وذلك بما امتاز به من غزارة في المادة ودقة في العرض، بالإضافة إلىٰ قربه من الفترة الزمنية التي يعالجها البحث، وينبغي هنا التنويه أيضًا بصفة خاصة بكتاب «**بغداد**» لابن طيفور، فقد انفرد

بمعلومات مهمة عن الخليفة المأمون والرجال الذين اتصلوا به، وعن بدايات المحنة وتطورها، فمثَّل بذلك قيمة تاريخية خاصة لهذا الموضوع.

بعد هذه المقدمة التي تناولت موضوع البحث باختصار، وأشارت إلىٰ بعض ما سبقه من جهود، واستعرضت محتوياته وأهم مصادره نرجو أن يكون هذه البحث قد نجح في تحقيق بعض أهدافه، وأبرز أهمية الدور التاريخي الذي لعبه المعتزلة علىٰ مسرح التاريخ الإسلامي، هذا مع الاقتناع التام بأن البحث ما زال قابلًا للمزيد وأن بعض أحكامه قابلة للمراجعة. فليس بوسع باحث أن يدعي أنه قال الكلمة الأخيرة.

ونحمد الله علىٰ ما وفَّق وأعان